المنزع العقلي في الأدب العربي القديم

التخطيط

I - التمهيد :

1 - تعريف العقل

2 - نشأة النزعة العقلية عند العرب .

3 - تعريف المعتزلة : النشأة / المبادئ / أسبقية العقل على النقل / التفكير العقلاني

4 – حضور العقل في مؤلفات الجاحظ " من خلال كتابي الحيوان والرسائل "

5 - من تجليات المنهج العلمي عند الجاحظ

II - الحجاج :

1 - تعريف الحجاج " النص الحجاجي " :

2 - بنية النص الحجاجي

3 - الأساليب الحجاجية

4 - الروابط المنطقية

5 - الحجج : انواعها / وظائفها / شروط نجاحها .

III – الخاتمة

Baccalauréat Lettres Tunisie

I - التمهيد:

إنّ دراسة المنزع العقلي في الأدب العربي القديم عموما والنزعة العقلية في مؤلفات الجاحظ خصوصا أمر يعسر على الدارس لا من باب الفهم فقط بل ايضا من باب تعدد الرؤي في تجليات العقل في هذه المؤلفات خاصة أنّ العقل قد تجلي فيها بمظهرين : مظهر العقل الملكة / المدرك بما يمثله من ميزة تميّز بها الإنسان عن بقيّة المخلوقات و مظهر العقل المعتزلي الذي يعبر عن نزعة كلامية مذهبية ماثلة في النصوص كحجة وبرهان على صحّة المذهب وأفضليته على المذاهب الأخري .

لهذا الأمر إرتأينا بهذه المحاولة المتواضعة ووفقا لمحتوي درس النزعة العقلية في الأدب العربي القديم من خلال مؤلفات الجاحظ ضرورة البدئ ببيان مفهوم العقل في التراث اللغوي ، لغة واصطلاحا وكيفية ظهور هذه النزعة العقلية عند العرب عموما و في مؤلفات الجاحظ على و جه التخصيص مرورا بتعريف المعتزلة و بيان أهم مبادئها باعتبار أنّ الجاحظ أحد أقطاب هذا المذهب وأبرز المدافعين عن مبادئه انتها ء بالتعرض إلي النزعة العقلية في مؤلفات الجاحظ وخاصة في كتابي الحيوان والرّسائل الذين لهما صلة بالبرامج الرّ سمية للسنة الرابعة آداب مشددين التركيز على النصوص الحجاجية لما تضمنته هذه النصوص من حضور للعقل في مستوي الصياغة الفنية من حيث بنيتها الحجاجية وأساليبها وروابطها المنطقية والحجج المعتمدة للبرهنة و في مستوي حضور العقل والإنتصارله من خلال تناول المواضيع المدروسة .

إن اهتمامنا في هذه المداخلة سيرتكز بالدرجة الأولي على مواضيع اشتغال العقل في مؤلفات الجاحظ والتعرّف إلي بنية هذه النصوص الحجاجية وذلك حرصا منّا أن يتبين التلميذ أثناء مراجعة هذا المسألة أنّ العقل عند الجاحظ يمثل قطب الرحى الذي تتمحور عليه صغار الأمور وكبارها وأنّ العقل عند ه ذا المفكر إنما هو ثمرة حسن الوفاء للنزعة المذهبية وعمل على كسر الثقافة النقلية ورغبة منه في التأسيس لنزعة عقلية و منهج ا علمي يمثل فيه العقل الحجة والبرهان على صحة الموقف كما يمثل فيه العقل أيضا دليلا بيّنا علي صحّة المذهب الاعتزالي .

- فما هو إذن مفهوم العقل في التراث العربي لغة واصطلاحا ؟
- وكيف ظهرت النزعة العقلية عند العرب عموما وفي مؤلفات الجاحظ على وجه الخصوص ؟
- ومن هم المعتزلة وماهي أهم المبادئ التي قامت عليها ؟

Bacalauréat Lettres Tunisie

- وماهي تجليات حضور العقل في " حيوان" الجاحظ و "رسائله" من خلال نصوصه الحجاجية برلية ومضمونا ؟

1 - تعريف العقل:

من البديهي أنّ الخوض في مسألة النزعة العقليّ في الأدب العربي يستدعي منّا وجوبا تعريفا للعقل ينير لنا درب البحث ويذلل لنا صعوبات الدرس إيمانا منّا أنّ شروط البحث يجب أنّ تمرّ وجوبا ببيان المصطلح وتعريفه .

تجمع المعاجم العربيّة على أنّ المعنى الابتدائي لكلمة «عقل» أعني المعنى الذي يحيل إلى المشخص المحسوس هو «الربط» قال في لسان العرب «وعقل البعير يعقله عقلا و عقله واعتقله » ثني وظيفه مع ذراعه وشدّهما جميعا في وسط الذراع ثمّ ترتفع بنا المعاجم درجة أخرى في التعريف فنجد في لسان العرب كذلك رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردّها عن هواها و «عقل الشيء يعقله » بمعنى فهمه .

لذلك نفهم أنّ كلمة عقل قد ارتبطت بكثير من الدلالات في المعاجم و القواميس إلى أن وصلت بنا إلى حدود أنّ العقل هو الفهم وأنّ العقل هو بمثابة القيد للمعاني يحفظها و يفهمها . وقد وردت في هذا المعنى آيات كثيرة في القرآن منها قوله تعالى «يسمعون كلام الله ثمّ يحرّفونه من بعد ما عقلوه و هم لا يعلمون» البقرة- الآية 75 ، أي من بعد ما فهموه ووعوه . ومجمع القول على اختلاف الرّوى والمفاهيم التي اتّصلت بتحديد مفهوم العقل فلسفيّا ودينيّا وعلى مستوى المعاجم ارتأينا أن نجمع القول في هذا الاختلاف والقول بأنّ العقل هو قوة النفس التي بها يحصل تصوّر المعاني وأنّ العقل وظيفته تجريد الصورة عن المادة وهو قوة تجريديّة تمكنه من الإصابة في الحكم وتميّز الحقّ من الباطل والخير من الشرّ والحسّ من القبيح، فهو ملكة إنسانية قادرة على تحصيل المعارف والتمييز بينها لذلك مثّل جوهر الإنسان وطريقه إلى الصواب وفكّ رموز الأشياء وأداة للتحقق وإن اختلفت المواقف في تحديد هذه الملكة الخارقة في الإنسان وكيفيّة اشتغالها وأداة للتأمّ ل و النظر .

لذلك قيل رجل عاقل بمعنى فاهم له القدرة على الفهم والتمييز والنظر وإطلاق الحكم عبر التمحي ص و التحقيق.

وهو ما ميّز به الله تعالى الإنسان عن سائر المخلوقات .

وهو أداة للتكليف لأنّ الإنسان يحاسب عن أفعاله لأنه يمتلك عقلا به يستطيع التمييز بين ا لخير والشرّ والقبيح والحسن .

Baccalauréat Lettres Tunisie

عموما العقل أداة للفهم والتوضيح والتأمّل و الإشراف وربط الأسباب بالنتيجة . وهو القدرة والفعل والبحث والتأمّل والاكتشاف وعدم اعتناق الأمور وتبنّها إلاّ بعد فحصها والنّظر فيها والتحقق من صحتّها بإعمال العقل واستعماله فهو ملكة تشريف الإنسان والعقل ضدّ النقل بمعنى ضدّ الثقافة النقليّة أو ثقافة التلقين دون الفهم والتمحيص .

2 ـ نشأة النزعة العقلية عند العرب :

إنّ التحديد الزمني لبروز النزع ة العقلية عند العرب يبدوا منافيا لشروط البحث الموضوعي لأنّ تقييد ظهور العقل العربي بفترة زمنية محددة يعدّ تجنيا علي تراثنا العربي الذي شهد بوادر التفكير العقلي منذ عصوره الأولي والتي تجلت من خلال شعرنا الجاهلي باعتباره يمثل ديوان العرب ومخزون تراثهم وقد زخر الشع ر الجاهلي بأسباب التفكير العقلي ومثالنا علي ذلك معلقة زهير بن أبي سلمي وما كانت عليه من حكمة ومن خلال أمثال أكثم بن صيفي وحكمه النادرة . فضلا عن التفكير العقلي الذي طبع الثقافة العربية الإسلامية في بداياتها ، لهذا الأمر نحترز شديد الإحراز أمام ضبط تاريخ محدد لظهور النزعة العقلية في الأدب العربي ولا يمكن بأيّ حال من الأحوال حصرها في كتابات ابن المقفع أو الجاحظ أو التوحيدي وقد جوزنا لأنفسنا هذا الفصل لغاية منهجية بحتة .

لقد كان للمشكلات الفكريّة التي واجهتها الأمّة زمن الفتنة الكبرى تأثير ا بالغا في إثارة العقل وتوجيهه نحو البحث وإطلاق الحكم في عدّة مسائل فقهيّة وسياسيّة كحكم مرتكب الكبيرة لأنّ الأمّة الإسلاميّة شهدت اختلالا بين قريش في موقعة صفين والجمل وتقديم الحكم في من هو أحقّ بالخلافة وكان لزاما على هذا العقل أن يواجه هذه المشاكل بعد أن كانت الأمّة الإسلاميّة زمن حياة الرسول ذات ثقافة نقليّة تعتمد القرآن والسنّة كمنهج وقانون للحكم إذن فإنّ الفتنة الكبرى وما أفرزته من تحوّلات سياسية كانت السبب الرئيس في طرح عدّة مشاكل وقضايا أدّت إلى ضرورة النظر وحتّمت أن يكون العقل محلّ اشتغال فيها وهذا ما ساهم طبعا في إلغاء الثقافة النقليّة نحو النزعة العقليّة التي تأصّلت جذورها في تكوّن عدّة فرق كلاميّة توجّهت إلى النظر والبحث في عدّة مسائل فقهيّة وسياسيّة وأدّت إلى انقسام المسلمين إلى فئات متعدّدة وساهمت في إثراء حركة الصّراع بينهم واشتغال آلة العقل فيها وإلى تضارب المواقف و تعدّد زوايا الرؤى والحكم فيها، هذا إضافة إلى إنفتاح العرب على الأمم الأخرى وازدهار حركة الترجمة التي ساهمت في تغير الثقافة العربيّة الأصيلة من ثقافة الصوفيّة إلى الثقافة العقليّة العقليّة.

Baccalauréat Lettres Tunisie

هذه بوادر نشأة الخطاب العقلي عند العرب كانت خلافات سياسية أدّت الي اثارة عدّة أسئلة وقف المسلمون أمامها موقف الحائر ولم يجد لها تفسيرا فكان لز اما على هذا العقل أن يكون مجال بحث وتأمل في الحكم الذي أفرز عدّة مسائل فقهية وللتعرّف أكثر على حيثيات هذا الصراع و الانقسامات وجب التعرّض إلي أطوار الفتنة الكبري وقد ارتأينا الإيجاز والمرور بالأسباب الرئيس ة فقط وتوضيح أسباب نشوء العقل والفرق الكلامية لأنّ هذا يقودنا مباشرة للحديث والتعرّف على أصول النزعة العقلية عند الجاحظ لأنها كانت نابعة من خطاب المذهب باعتبار أنّ المعتزلة اعتبرت نفسها خطابا عقليا .

3 - تعريف المعتزلة: ‹ النشأة / المبادئ / أسبقية العقل على النقل / التفكير العقلاني ›

المعتزلة فرقة إسلامية نشأت في أواخر العصر الأموي وازدهرت في العصر العباسي، وقد اعتمدت على العقل المجرد في فهم العقيدة الإسلامية لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة وقد أطلق عليها أسماء مختلفة منها : المعتزلة والقدرية (*) والعدلية وأهل العدل والتوحيد والمقتصدة والوعيدية .

اختلفت رؤية العلماء في ظهور الاعتزال، واتجهت هذه الرؤية وجهتين :

- **الوجهة الأولى**: أن الاعتزال حصل نتيجة النقاش في مسائل عقدية دينية كالحكم على مرتكب الكبيرة (*)، والحديث في القدر، بمعنى هل يقدر العبد على فعله أو لا يقدر، ومن رأي أصحاب هذا الاتجاه أن اسم المعتزلة أطلق عليهم لعدة أسباب منها :

1 - أنهم اعتزلوا المسلمين بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين .

2 - أنهم عرفوا بالمعتزلة بعد أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري وشكل ح لقة "خاصة به لقوله بالمنزلة بين المنزلتين فقال الحسن : "اعتزلنا واصل .

3 - أو أنهم قالوا بوجوب اعتزال مرتكب الكبيرة .

أما الوجهة الثانية: أن الاعتزال نشأ بسبب سياسي حيث أن المعتزلة من شيعة علي رضي الله عنه اعتزلوا الحسن عندما تنازل لمعاوية، أو أنهم وقفوا موقف الحياد بين شيعة علي ومعاوية فاعتزلوا الفريقين .

والواقع أن نشأة الاعتزال كان ثمرة تطور تاريخي لمبادئ فكرية وعقدية وليدة النظر العقلي المجرد في النصوص الدينية وقد نتج ذلك عن التأثر بالفلسفة اليونانية والهندية والعقائد اليهود ية والنصرانية.

Baccalauréat Lettres Tunisie

إنّه قبل بروز المعتزلة كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء، كان هناك جدل ديني فكري بدأ بمقولات جدلية كانت هي الأسس الأولى للفكر المعتزلي وهذه المقولات نوجزها مع أصحابها بما يلي :

- مقولة أن الإنسان حر مختار بشكل مطلق ، وهو الذي يخلق أفعاله بنفسه قالها : معبد الجهني، الذي خرج على عبد الملك بن مروان مع عبد الرحمن بن الأشعث .. وقد قتله الحجاج عام 80هـ- بعد فشل الحركة

- ومقولة خلق القرآن ونفي الصفات ، قالها الجهم بن صفوان .

ثم برزت المعتزلة كفرقة فكرية على يد واصل بن عطاء الغزال (80هـ - 131هـ) الذي كان تلميذاً للحسن البصري، ثم اعتزل حلقة الحسن بعد قوله بأن مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين (أي ليس مؤمناً ولا كافراً) وأنه مخلد في النار إذا لم يتب قبل الموت، وقد عاش في أيام عبد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك، والفرقة المعتزلية التي تنسب إليه تسمى : الواصيلة .

ولاعتماد المعتزلة على العقل في فهم العقائد وتقصيهم لمسائل جزئية فقد انقسموا إلى طوائف مع اتفاقهم على المبادئ الرئيسة الخمسة - التي سنذكرها لاحقاً - وكل طائفة من هذه الطوائف تميزت عن الطائفة الأخرى وسمّت نفسها باسم صاحبها الذي أخذت عنه.

ومن أبرز مفكري المعتزلة منذ تأسيسها على يد واصل بن عطاء وحتى اندثارها وتحلّ لها في المذاهب الأخرى كالشيعة والأشعرية والماتريدية ما يلي :

- أبو الهذيل حمدان بن الهذيل العلاف (135 -226 هـ) مولى عبد القيس وشيخ المعتزلة والمناظر عنها .

- إبراهيم بن يسار بن هانئ النظام (توفي سنة 231هـ) وكان في الأصل على دين البراهمة (*) وقد تأثر أيضاً بالفلسفة اليونانية مثل بقية المعتزلة .. وقال:بأن المتولدات من أفعال الله تعالى، وتسمى طائفته النظامية .

- عمرو بن بحر : أبو عثمان الجاحظ (توفي سنة 256هـ) وهو من كبار كتاب المعتزلة، ومن المطلعين على كتب الفلاسفة، ونظراً لبلاغته في الكتابة الأدبية استطاع أن يدس أفكاره المعتزلية في كتاباته كما يدس السم في الدسم مثل، البيان والتبيين، وتسمى فرقته الجاحظية .

مبادئ وأفكار المعتزلة:

جاءت المعتزلة في بدايتها بفكرتين مبتدعتين :

Baccalauréat Lettres Tunisie

- الأولى : القول بأن الإنسان مختار بشكل مطلق في كل ما يفعل، فهو يخلق أفعاله بنفسه، ولذلك كان التكليف، ومن أبرز م ن قال ذلك غيلان الدمشقي، الذي أخذ يدعو إلى مقولته هذه في عهد عمر بن عبد العزيز . حتى عهد هشام بن عبد الملك، فكانت نهايته أن قتله هشام بسبب ذلك .

- الثانية : القول بأن مرتكب الكبيرة (*) ليس مؤمناً ولا كافراً ولكنه فاسق فهو بمنزلة بين المنزلتين، هذه حاله في الدنيا أما في الآخرة فهو لا يدخل الجنة لأنه لم يعمل بعمل أهل الجنة بل هو خالد مخلد في النار، ولا مانع عندهم من تسميته مسلماً باعتباره يظهر الإسلام وينطق بالشهادتين ولكنه لا يسمى مؤمناً

ثم حرر المعتزلة مذهبهم في خمسة أصول :

1 - التوحيد.

2 - العدل.

3 - الوعد والوعيد.

4 - المنزلة بين المنزلتين.

5 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

1- **التوحيد** : وخلاصته برأيهم، هو أن الله تعالى منزه عن الشبيه والمماثل (ليس كمثله شيء) ولا ينازعه أحد في سلطانه ولا يجري عليه شيء مما يجري على الناس . وبنوا على ذلك أيضاً أن القرآن مخلوق للنفيهم عن الله سبحانه صفة الكلام.

2 - **العدل** : ومعناه برأيهم أن الله لا يخلق أفعال العباد، ولا يحب الفساد، بل إن العباد يفعلون ما أمروا به وينتهون عما نهوا عنه بالقدرة التي جعلها الله لهم وركبها فيهم وأنه لم يأمر إلا بما أراد ولم ينه إلا عما كره، وأنه ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطيقون ولا أراد منهم ما لا يقدرون عليه . وذلك لخلطهم بين إرادة الله تعالى الكونية (*) وإرادته (*) الشرعية .

3 - **الوعد والوعيد** : ويعني أن يجازي الله المحسن إحساناً ويجازي ا لمسيء سوءاً، ولا يغفر لمرتكب الكبيرة (*) إلا أن يتوب .

4 - **المنزلة بين المنزلتين**: وتعني أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين الإيمان والكفر فليس بمؤمن ولا كافر . وقد قرر هذا واصل بن عطاء شيخ المعتزلة.

5 - **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: فقد قرروا وجوب ذلك على المؤمنين نشراً لدعوة الإسلام وهداية للضالين وإرشاداً للغاوين كل بما يستطيع : فذو البيان ببيانه، والعالم بعلمه، وذو السيف

Baccalauréat Lettres Tunisie

بسيفه وهكذا . ومن حقيقة هذا الأصل أنهم يقولون بوجوب الخروج على الحاكم إذا خالف وانحرف عن الحق .

4 - حضور العقل في مؤلفات الجاحظ :

للجاحظ مكانة متميزة في تاريخ الفكر العربي باعتباره مثل قطيعة معرفية مع الفكر التسليم الانطباعي وعدّ مؤسّسا للمعرفة العقليّة .ولقد كان الجاحظ استجابة حضارية طبيعية لظرف معرفي مخصوص تميزبحضورمكثف للعقل ودليل ذلك أن السلطة في عصر الجاحظ كانت اعتزالية.وتميز هذا الظرف بكثرة الجدل و الاختلاف بين الفرق الإسلامية كما تميز باكتمال مرحلة التدوين وما أفرزته من تداخل بين الحقائق . وميزة الجاحظ انه خاص بالعقل

في ميادين لم يخض فيها العقل مسبقا و قد نظر في عالمين اثنين متقابلين و لكنه تمكن من الربط بينهما هما عالم الم حسوسات من خلال دراسة الحيوان و قد أسس أثناء ذلك منهجا يقوم على السماع و الشك و التجربة وعالم الغيب والماورائيات و قد استند في ذلك إلى الاستدلال و الحجاج و قد استفاد الجاحظ في نشأته في البصرة التي كانت قطبا فلسفيا و فكريا و قد ازدهرت فيها التيارات العقلية و نشطت فيها حركة الترجمة مما مكن الجاحظ من الاستفادة بالتراث اليوناني و لا سيما تراث أرسطو .

أسس الجاحظ منهجا لأدراك اليقين يقوم على أسس ثلاثة أولها السماع إذ أخذ الجاحظ في الحيوان - من مصادر مختلفة منها ما هو مكتوب و مأخوذ من التراث اليوناني و كتاب "الحيوان" لأرسطو و منها ما هو عربي شفوي كمساءلة أصحاب الخبرة من الحرازين و الحوانين و الصيادين و منها ما هو شعرى كبعض الأبيات التي قيلت عن الحيوان . - كثرة المصادر في كتاب الحيوان يعود إلى إيمان الجاحظ أن معرفة الفرد محددة و لا سبيل لنماء علمه إلا بالاطلاع على معارف السابقين يقول الجاحظ:"الانسان لا يعلم حتى يكثر سماعه " لكنه لم يسلم بما يسمع و لم يطمئن إلى العلماء مهما كان مقدار علمهم لأن التقليد و الحفظ قاصران على إدراك الحقيقة يقول الجاحظ:"ان مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلدا و الاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه برد اليقين." - الشك: لما كانت غاية الجاحظ معرفة الحقيقة فانه لا مناص له من استعمال العلم للظفر باليقين و الشك جلاء عملي و ترجمة فعلية للعقل . و الشك عند الجاحظ منهج لا غاية في ذاته لهذا السبب يدعو إلى معرفة الحالات الموجبة له لمعرفة الحالات الموجبة لليقين وهو بذلك يتجاوز شك الريبيين الذين جعلوا الشك منطلقا و غاية

Bacalauréat Lettres Tunisie

الشك في الأخبار أساسي عند الجاحظ لأن البشر ميالون بطبعهم إلى التحريف والإنسان ليس معصوما من الخطأ مهما كان لذلك دعا إلى اعتماد الشك في الخبر مهما كان مصدره حتى و إن روي عن علماء ثقات لأن ثقة السند ليست دليلا على صحة المتن يقول : " لا ترسلوا إلى كبير من العلماء فإذا عليمهم يقول بغير رواية و على غير أساس "

فعلاقة الجاحظ بالتراث إذن تقوم على جدل الاتصال و الانفصال

و بما أن الشك طريق إلى اليقين و العقل سبيله فان الحس و التسليم و التقليد عائق لإ دراك "لذلك يدعو إلى المعرفة العقلية . يقول الجاحظ :لا تذهب إلى ما يريك العقل و العقل هو الحجة .

إن ازدهار المعارف في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة نتيجة المثاقفة و ظهور علم الكلام و تحول التصوف الاسلامى من مجال الممارسة الزهدية إلى نظرية في المعرف ة و البحث في حقائق الوجود والكون نقل الفكر العربي من مرحلة المنقول و التسليم إلى مرحلة المعقول فلم تعد المرحلة قائمة على النقل و لم تعد تقوم على حرفية النص بل أصبحت عملا تاوليا يقوم أساسا على العقل و كل ذلك نقل المنزع العقلي من دائرة الأخلاق و السلوك عند ا بن المقفع مثلا إلى دائرة الحقيقة المعرفية و كان ذلك مع الجاحظ ,وليس فضل الجاحظ أنه بني نظرية معرفية بقدر ما يكمن فضله في تأسيس منهج قوامه السماع أولا و الشك ثانيا و التجربة ثالثا و قد بدا ذلك جليا في كتابه الحيوان إذ الجاحظ أجرى بعض التجارب ليتأكد من صحة ا لأخبار و خطئها ولم يقتصر في ذلك على تجاربه الشخصية بل تعداها إلى الاستفادة من تجارب غيره لاعتقاده ان معرفة العالم لا تنمو إلا " بسماعه يقول الجاحظ:"لو جئنا إلى قدر قوتنا و منتهى تجاربنا لقلت المعرفة

و لقد كان الجاحظ في تجاربه ملاحظا مستقرئا دقيقا يعرض تجربة و يصفها ساعيا إلى إدراك الحقيقة و لم يكن متعصبا أبدا و مما يؤكد ذلك اعتماده على تجارب غيره حتى بدا كتاب الحيوان مزيجا من الجهد الذاتي و الجهد الموضوعي و مزيجا متناسقا من المصادر المكتوبة و المسموع و تجارب الجاحظ على الكلب تؤكد انتباهه و مشاركته بلوغ بعض النظريات الحديثة و حدسه بها ذلك إن ظاهرة الانتباه الغريزي في الكلب لا تختلف كثيرا في جوهرها عن نظرية الانعكاس الشرطي" لباقلوف " فقد استطاع أن يثبت بعض السلوك الحيواني الذي يتنزل حديثا ضمن ما يعرف بعلم النفس السلوكي و لم يتسن ذلك للجاحظ لولا المنهج التجريبي و عماده و ملاحظة السلوك و مراقبته و تنويع التجربة بتغيير الظرف الزمني أو المنبه (السماع, الشم,الافتراض)و لكن إذا سلمنا بتوفر الأسس المنهجية الضرورية للبحث العلمي التجريدي عند الجاحظ فإننا نتساءل لماذا لم تثمر هذه التجارب نظريات علمية دقيقة .

Baccalauréat Lettres Tunisie

مفهوم الحقيقة عند الجاحظ ليس مفهوما علميا ذلك إن أصلي الحقائق ما اتصل بالدين و ما الحقيقة العلمية إلا أداة لإثبات الحقائق الدينية و هذا المزج بين الدين و العلم أعاق عقل الجاحظ و جعله عاجزا عن التسليم

بل يمكن القول أن الجاحظ لم يرم ذلك لأنه جعل من عالم الحيو ان و عجائبه شاهدا على الحكمة الإلهية في إطار دلالة الشاهد على الغائب.

5 - من تجليات المنهج العلمي عند الجاحظ

- دراسة طبائع الحيوان وأساليب عيشه والبيئات التي يعيش فيها وطرق تكاثره وغذائه وأصنافه وجوانب من سلوكه وخصائصه ....دراسة يتخللها الكثير من الآراء و الأفك ار العلمية المتقدمة كالحديث عن تأثير البيئة في الحيوان و الإنسان والشجر وبعض الأفكار عن الوراثة وتطوّر الأجناس وتأثير الغرائز (راجع في "الحيوان" حديثه عن الخلاسي من الدجاج وعن ابن المذكرة من المؤنث وعن قوة تأثير الشهوة وطلب النسل يقول :" وعامة اكتساب الرج ال وإنفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون إنما هو مصروف إلى النساء و الأسباب المتعلقة بالنساء ")- ج1ص

الموضوعيّة و الشكّ المنهجيّ

أ - الموضوعيّة و التّجرّد

- رفض التسرع في الحكم و التعجيل بالتصديق أو التكذيب قبل التثبت :"و لا يعجبني الإقرار بهذا الخبر، كما لا يعجبني الإنكار له ". و يظهر ذلك في إيراد الروايات بسند صحيح ثابت كما سمعها أو نقلها إليه الثقات من أصحابه و شيخوخة من دون أي حكم مسبق لها أو عليها، مثل إيراده تفصيلات حول طريقة الحيّة في اصطياد العصافير، و طرح وجهات النّظر المختلفة في ال مسألة التي يدرسها طرحا موضوعيا من غير تدخّل أو إصدار حكم إلا بعد التّمحيص و الشّك و التّحليل، كما فعل حين أورد الرّوايات المختلفة التي سمعها عن طريقة ولادة الأفعى
- عدم الاغترار بظواهر الأشياء أو الاستناد على المظاهر في تقييم الأمور :"أوصيك أيّها القارئ المتفهّم و أيّها المستمع المنصت المصغ ، أن لا تحقر شيئا أبدا لصغر جثّته و لا تستصغر قدره لقلة (ثمنه "، (الحيوان
- الانطلاق في بحث المسألة بحثا عقليا من رفض الانقياد للمسلّمات او التسليم لصحّة الأفكار المسبقة مهما تكن أو شائعة . و مهما يكن ثبات الرّواة و ا لثقة في علمهم : "زعم ابن أبي العجوز أنّ

Baccalauréat Lettres Tunisie

الدّسّاس تلد و كذلك خبّربني به محمد ابن أيوب ابن جعفر عن أبيه و خبّرني به الفضل بن إسحاق بن سليمان فإن كان خبرهما عن إسحاق فقد كان إسحاق من معادن العلم " إلى أن يقول :" و لم أكتب هذا لتقرّ به ..."

- بحثه عن المعلومة في مظانّها و مصادرها الأصلية و اتصاله بأصحابه المتخصّصين فيها و أمثلة ذلك كثيرة منها :" وسمعت حديثا من شيوخ ملاحي الموصل ..." " و خبّرني من يصيد العصافير ... وشكا إليّ حواء مرة ... - التحري و الاقتصاد في الحكم : كثيرا ما يميل الجاحظ إلى الترجيح و التغليب أو الشك و الاستبعاد و لعلّ ذلك من مظاهر تواضعه العلمي و تقديره للثقات الذين يروي عنهم من أفذاذ العلماء في عصره كما في قوله : "و لا أدري أيّ الخبرين أبعد , أخبر ابن غالب في تفسيخ الثوب (يقصد تقطّع الثوب بتأثير سمّ الأفعى) أو خبر ابن المثنى في سلامة ا لفروج على الأفعى" . و لا تكاد تعترضك في كلام الجاحظ أحكام مطلقة أو آراء نهائية مؤكدة إلا متى كان الغلط فيها بيّنا ، كموقفه من ذلك الأعرابي الذي ادّعى وجود حيّة ذات رأسين، فسأله محاجّا :" من أيهما تأكل؟ " و لما أجابه بأنها تتعشّى بفم و تتغدّى بفم ، علّق قائلا :"فإذا به أكذب البريّة ". - استقلاله الفكري و عدم تبعيّته لأحد مهما تعاظمت مكانته العلميّة إلا متى أقرّ بصحّة رأي من آراء أساتذته و وافقه ، فقد ردّ على أرسطو في الكثير من المواضع التي نقل فيها عنه (انظر مقدمة "الحيوان") لعبد السلام محمد هارون ط . مصطفى البابي الحلبي الثالثة- 1965 – ص 22) و من أمثلة ذلك قوله :"و قد سمعنا ما قال صاحب المنطق ...و ما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان " الحيوان "

ب - الشكّ

مثّل الشك لدى الجاحظ طريقة في التعامل مع مسائل المعرفة و منهجا من مناه ج النظر في الموجودات و معطيات الواقع الحسّي و الذّهني . و لعلّ الجاحظ أن يكون قد استلهم طريقة " الشك الموصل الى اليقين " من أستاذه النّظام

و يرى الاستاذ اليعلاوي أنها طريقة تعتمد جملة من القواعد يمكن حصرها في

-* عدم قبول الخبر مسلما و عدم تكذيبه مبدئيا . يقول " و لا يعجبني الإقرار بهذا الخبر و لا يعجبني الإنكار له "

-* معالجة الخبر لمعرفة مواضع الضّعف فيه و هي الموصلة الى اليقين . يقول " فاعرف مواضع الشك و حالاتها الموجبة له لتعرف مواضع اليقين و الحالات الموجبة له .. " . فليس الشك لديه لأجل الشك في حدّ ذاته و إنما طلبا لليقين . و مادام الشك طريق اليقين فلا بدّ من تعلمه و التسلح به

Baccalauréat Lettres Tunisie

و إن لم يوصل الى معرفة يقينيّة . يقول " تعلّم الشّك في المشكوك فيه تعلّما فلو لم يكن في ذلك إلا تعرّف التوقف ثمّ التثبت لكان ذلك ممّا يحتاج إليهّ . و في تعامل الجاحظ م ع الأخبار التي يجمعها إجراء واع لأدوات الشّك و نعني بها اعتماد منهج التجريح و التعديل بالنّظر في مصداقيّة السّند الناقل للخبر و مبلغ ثقته . ثمّ بتقليب المتن و موازنته و مقارنته و عرضه على التّجربة الملموسة أو العقل المستدل أو الخبرة المتراكمة أو المعرفة ال حاصلة .

II - الحجاج:

1 - تعريف النّص الحجاجي :

النص الحجاجي نوع من النصوص التي تتضمن طائفة من الحجج، يؤتى بها للإقامة الدليل على صحة رأي أو بطلان، وهو إما موجه إلى فرد أو إلى جمهور لإقناعه لتغيير موقفه السياسي أو مذهبه الفكري أو إقناعه بفكرة ، وهو كثيرا ما تمتزج فيه الرؤية الذاتية بالرؤية الموضوعية، وهو بذلك يختلف عن الأدلة والحجج المستعملة في علوم الطبيعة والرياضية ذات موضوعية غاية الصرامة .

2 – بنية النصّ الحجاجي :

إن المتأمل في نصوص الجاحظ عبر معاينتها يكتشف أنها انبنت بناء مخصوصا على اختلاف الخطّة الحجاجية فيها فلا بدّ من الإشارة أولا أنّ نصوص الجاحظ قد تناولت مواضيع عدّة في علم الكلام و في الأمور العلمية والمعرفية والفكرية يسعي الجاحظ إلي الخوض فيها ومنا ظرة خصومه نحو تأصيل الحقيقة لذلك نري أنّ نصوصه توفرت فيها مقومات النّص الحجاجي بنية وأسلوب ا ففي بعضها ينطلق الجاحظ من عرض الرّأي المخالف ثمّ يسعي إلي دحضه بالحجة والبرهان معتمدا في ذلك مجموعة من الحجج نحو تأصيل الأطروحة المدعومة انتهاء بالنتيجة اوالإستنتاج أو العبرة التي هي بمثابة الحقيقة التي تنتصر للعقل وتؤسس لحضوره ، و قد نجد في بعض نصوصه ع رضا مباشرا وصريحا للأطروحة المدعومة في مسلمة غير قابلة للدحض خصوصا إذا كانت ذات مرجعية دينية يسعي إلي إثباتها معملا العقل فيها لذلك يلاحظ الدارس لهذه النصو ص أن ترتيب أقسامها قد لا تستجيب دائما للبنية النظرية للنصّ الحجاجي – أطروحة مدعومة / أطروحة مدحوضة / سيرورة حجاج / نتيجة أو استنتاج أو عبرة .

3 - الأساليب الحجاجية :

Baccalauréat Lettres Tunisie

جاءت نصوص الجاحظ الحجاجية وفق أساليب متنوعة ساهمت في دعم الأطروحة التي يدافع عنها ودفع الرأي المخالف الذي يدحضه وقد تراوحت بين صيغ صرفية ومؤشرات لغوية وأساليب بلاغية ، نجملها فيما يلي : صيغ المبالغة وأسماء التفضيل والجمل الاسمية الخبرية التقريرية والجمل الشرطية التلازمية والجمل القائمة على النفيّ والإثبات واعتماده على الحصر و القصر والاستثناء و الاستدراك و الجمل الدعائية والطباق والمقابلة فضلا عن الحقل المعجمي المخصوص الذي يساعد المحاج على تدعيم الرأي الذي يدافع عنه من ذلك نجد اعتماد ألفاظ مثل : العقل و التعقل و الفهم والإدراك والعلم والمعرفة و الحكمة والاستدلال و القياس .... إضافة إلي الأفعال الدالة على منهجه العلمي في البحث مثل جرّ بت / وجدت / عاينت / رأيت / علمت ....

4 - الروابط المنطقية :

العلاقات المنطقية	الروابط المنطقية	الوظيفة
الجمع والإضافة	**و – إضافة إلي – إلي جانب – من ناحية ومن ناحية أخري – بولكن أيضا – لا فقط**	**تسمح بإضافة حجة جديدة**
الاستدراك	**رغم – بدون شك – رغم أنّ – مما كان – ولكن – غير أنّ – بيد أنّ – في حين**	**تسمح بملاحظة حجج مناقضة مع التّمسك بنفس الموقف**
التقابل	**علي النقيض – بخلاف ذلك – في الوقت الذي – إلا أنّ**	**تسمح بالمقابلة بين حدثين أو حجتين بغاية تفضيل أحدهما**
السبب	**لأنّ – باعتبار أنّ –بتعلة**	**تسمح ببيان الأصل والسّبب**
النتيجة	**إذن – بما أنّ – بحيث – تبعا لذلك**	**تسمح ببيان النتيجة الاستنتاج التعليل**

Baccalauréat Lettres Tunisie

5 - الحجج: أنواعها / وظائفها / وشروط نجاحها :

أ - أنواع الحجج :

تتنوع الحجج في نصوص الجاحظ بتنوع المواضيع التي يخوض فيها وبطبيعة الطرف المقابل الذي يريد إقناعه
ومن أهمّ الحجج التي يعتمدها الجاحظ نجد :

- **الحجة المنطقية :** وهي الحجة التي تبني على أساس الرّبط بين السبب و النتيجة أو على أساس القياس فيتم فيها الربط بين المقدمات و النتائج و يعوّل الجاحظ في هذه الحجة على العقل والمنطق في الإقناع .

- **حجة الشاهد القولي** : وهي الحجج التي عادة ما تكون منتقاة من نصوص معترف بأهمّيتها بلْ أن قوة النصّ في هذه الحجة هي التي تحدد قوة الحجة و أمثلة النصوص في هذه الحجة مثلا : النصّ القرآني – السنة – أقوال الصحابة والتابعين – أقوال الحكماء والعقلاء .... وقد يطلق على هذه الحجة أيضا مصطلح حجة ا لسلطة إذا كانت الحجة تمثل سلطة إجماع الفقهاء أو الأيمة أو العلماء .

- **الحجة الواقعية** : وهي الحجة التي تكون استعراضا لمجموعة من العلاقات أو الأعمال التي تميّز واقعا اجتماعيا أو حضاريا أو تاريخيا أو دينيا أو سياسيا ما وقد يعتمد المحاج في إيراد هذه الحجج على نمط السرد أو الوصف كأن يروي أحداثا ما أو يرسم ملامح صورة معيّنة .

- **حجة المثل** : وهي الحجة التي تقوم على التمثيل بمثل مسرود عادة ما يكون استطرادا أو تقوم على ذكر مثل سائر من أمثال العرب المعروفة والشائعة .

- **حجة الإحصاء :** وهي الحجة القائمة على العدد الكميّ الذي يوظف للدحض أو الإثبات .

- **حجة التعريف :** ويطلق عليها أيضا حجة الحَد وهي التي يقوم فيها المحاج بالتعريف اللغوي أو الاصطلاحي للموضوع الذي يريد الخوض فيه أو الأمر الذي يريد إثباته .

ب – وظائف الحجج : يمكن إجمال هذه الوظائف في ثلاث وظائف رئيسية :

- الإقناع : أي حمل المتقبل على تبني الأطروحة المدعومة ويكون ذلك باعتماد حجج عقلية ومنطقية و واقعية .

- حمل المتقبل على تصديق الأطروحة المدعومة : و ذلك بمخاطبة الرغبات والعواطف فيه (اللغة تنهض بوظيفة تأثيرية) وتسمي هذه الوظيفة وظيفة نفسية .

Baccalauréat Lettres Tunisie

- الدّحض : ويتمثّل في نقض أطروحة الخصم عبر الكشف عن عيوبها وإثبات عدم صحّتها بحجج مختلفة .

- تشترك هذه الوظائف في كونها تمثّل دعوة إلي تغيير موقفا أو رأيا أو انجاز عملا ما .

ج - شروط نجاحها :

- انتقاء الحجج حسب ملائمتها للأطروحة وحسب الوظيفة التي ين هض بها الحجاج و حسب تلاؤمها مع المقام

(حالة المتقبل) بمعني العلاقة بين المتقبل والمخاطب .

- انتقاء الأساليب والصيغ التعبيرية التي تسهم في تقوية الحجة وما يظهر من عبارات تتدخل في تحديد العلاقة بين الباث والمتقبل والسعيّ إلي إحكام الترابط بين وحدات النص ا لحجاجي .

III - الخاتمة :

وعلى سبيل الخاتمة يمكن القول إن مشاغل الجاحظ متنوعة في الحيوان والرّسائل :

* مشغل علمي في دراسة طبائع الحيوان .
* مشغل أخلاقي اجتماعي : تحليل القيم والسلوك .
* مشغل ديني : طرح مسائل عقائدية كامتزاج الخير بالشرّ ...

إنّ الجاحظ في أكثر ما كتب ظلّ مشدودا إلي علم الكلام ووفيّا إلي فكره الاعتزالي . و لمّا كان ذلك كذلك فإنّ فضل الجاحظ يعود إلي أنّه أراد أن يرسي منظومة عقلية تنسحب على كلّ المجالات ، كما أنّ هذا لا يمنع أنّ الجاحظ على قدر ما أراد أنّ يكون موضوعيا في بحوثه فإنه سقط في فخّ المذهب وهذا ما يشين البحث العلميّ و يحيد به عن شروط المنهج العلمي الذي يتطلب التجرّد من الذاتية والأحكام المسبقة ويفرض الموضوعية و الحياد في تناول الموضوع المدروس .

كما أنّ الجاحظ تحوّل إلي معتزليّ تابع لسلطة المأمون وهذا ما يجعل الكتابة عنده جهادا ضدّ المخالف للسلطة و لعلّ أنّ تشجيع السلطة للمعتزلة وقمع غيرها من الفرق والمذاهب يطرح أسئلة حول قيمة ما أنجز ، فبين السياسيّ والمذهبيّ قد يضعف العقليّ . / .

مع التوفيق والنجاح

Baccalauréat Lettres Tunisie